هدية إلى حلب في ختام احتفاليتها عاصمةً للثقافة الإسلامية
في الجامع الأموي الكبير بحلب

في هذا اليوم تُختتم احتفاليةُ حلب عاصمةً للثقافة الإسلامية، ومع خاتمة فعالياتها وقفت أتساءل: ماذا عساي أن أقول لأهل حلب مِنْ على منبر جامعها الأعظم؟

أمضينا عامًا نستعرض فيه تاريخ ثقافتنا الإسلامية في هذه المدينة العريقة، فرأينا هِمَّة أمين الأمة أبي عبيدة بن الجرّاح وهو يدخل إلى حلب من باب أنطاكيَّة، ويقف إمامًا يُصلي بالمسلمين فيما عُرف بعد ذلك بجامع الأتراس أو الشعيبية.

إنها هِمَّة تُسابق الثريّا، وتعلو فوق النجوم، وتستمدُّ من عزيمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومررنا في الذاكرة بالخليفة العادل عمرَ بنِ عبد العزيز، الذي صلَّى في هذا المسجد وأَمَّ المصلين فيه، فكان نموذج الزهْد، إذ كانت الدنيا في يده لكنها لم تدخل إلى قلبه، ووقف شامخًا فوقها ينظر إلى متاعها، ويَلبَسُ أولادُه قديمَ الثياب وهم في العيد، ويَلبَس أبناءُ المسلمين الجديد، وتدمع عينه وهو ينظر إلى ولده في العيد، فيقول له ولده: ما يُبكيك يا أبتاه؟ فيقول الخليفة العادل الزاهد: أخافُ أن ينكسر قلبك يا ولدي وأنت ترى أولاد المسلمين يلبسون الجديد في العيد، لكنَّ ذلك الغلام الذي تربَّى في بيتٍ ينهل من المعين الصافي أجاب والده: لا يا أبتاه، إنما ينكسر قلب من عقَّ أباه وأمه.

مررنا في عامنا هذا – ونحن نستعرض ثقافتنا الإسلامية في حلب – بحميَّة السلطان الزنكي، وعزيمة الأيوبي، ورواية الحافظ البرهان ابن العجمي للحديث، والذي كان من تلامذته العسقلانيُّ ابنُ حجر شارح البخاري.

ومررنا بفقه أبي منصور السمرقندي، وابنته عالمة الفقهاء فاطمة، وزوجها الفقيه الكاساني أبي بكر.

ومررنا بتصوّف السهروورديّ الوليّ، وتأريخ الرضيّ الحنبلي (أو ابن الحنبلي)، والمحترِف النجّار قاسم الذي كان عالِم وقته، لكنه كان مع ذلك في هذه المدينة يحافظ على حِرفة النجارة حتى عُرف بالشيخ النجّار.

ومررنا بصلاح العَلامة أحمد الترمانيني الوليّ البكّاء.

وقُلت ونحن في آخر يوم:

ما الفارق بين تاريخ ثقافتنا الإسلامية وحاضرنا هذا؟

ألا نلاحظ يا أهل حلب، ويا أحباب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في حلب، أننا تأخَّرنا عنهم قليلاً؟

لماذا وصلوا إلى ما وصلوا إليه؟ وما الذي يجمع بينهم جميعًا؟

أقول: يجمع بينهم:

١– نقاء السلوك وطهارة النفوس، وتقديم تعلُّق قلوبهم بحقائق الغيب على المحسوس.

أما نرى، ونحن نقرأ الواقع والتاريخ، أن سلوكنا تأخَّر عنهم؟

لأننا نُقدِّم تعلُّق قلوبنا بالمحسوس على تعلُّقها بالغيب.

فالسلوك وصفاء النفس لا يمكن في حالٍ من الأحوال أن يظهر في أرض الواقع، حتى يُغذِّيَه تقديمُ الغيب على المحسوس، ورجاءُ ما عند الله على ما في أيدينا.

٢- عبقرية العقول: لأنهم كانوا يقرؤون العِلْم ويحققونه ويمحِّصونه ويُدقِّقونه.

أما نلاحظ يا أتباع الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أننا لا نقرأ العِلْم كثيرًا؟

أما نرى أننا قد غَلَب علينا التقليد بدلاً من القراءة والبحث والتدقيق والتمحيص؟

٣- صفاء القلوب: وهذا يرجع إلى حُسن أخلاقهم، التي زكا فيها التواضع، وأشرقت فيها العبودية لله تبارك وتعالى.

ألا نلاحظ أن سوء الخُلُق دخل إلى أسواقنا، وبيوتنا، ووظائفنا، وشبابنا، وشاباتنا..؟

إذًا فمن أين يأتي صفاء القلوب؟!

٤- محبّة الأرواح: وتُغذِّيها الصحبة الصالحة، وقد تأخَّرت فينا، وذلك إما لأننا اكتفينا بالفردية، أو لأننا غذَّينا كثافة البواطن بالصحبة السيئة، وزاد الطين بلَّةً ما يصل إلى بيوتنا كلَّ يومٍ من المرئي الفضائي والمسموع، الذي لم نعد نقدر على مقاومته أو إيجادِ الموازِنِ له من المُدعِّمات الإيمانية.

٥- الهِمَّة العَلية: التي تريد وجه الله، فتُحرِّكها تلك الإرادة لتنقلب إلى هِمّة عالية مُستمَدَّةٍ من سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأنواره.

هذا هو جامع وصفهم.

تلك قراءةٌ بين التاريخ والواقع، لكن هل أريد من هذه القراءة أن أثبِّطكم يا أهلي؟!

هل أريد من خلال هذا الخطاب أن أقول: نحن في حالة إحباط؟!

لا.. فما أردت – من على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم – إلا أن أُذكِّر نفسي وإخواني وأقول:

إذا أردنا أن ننهض بحاضرنا ونَصِلَه بتاريخ ثقافتنا الإسلامية، أُقدِّم هذه النصائح الثلاثة:

١- تنظيم الوقت: فاجعلوا في يومكم وقتًا لكسب الرزق الحلال الذي أَمَرَنا الله تعالى بكَسْبه.

ووقتًا للقراءة في العِلْم، فلا تجعلوا المرئيَّ الفوضويَّ من الفضاء يطغى عليكم، إنما خذوا العِلْم من ينابيعه ومصادره...

اقرؤوا يا شباب، ويا كهول، ويا أيها النشء الجديد، وتعلَّموا ماذا تقرؤون، واسألوا ما الذي ينبغي أن تقرؤوه، حتى ننتقل من التقليد الأعمى.

واجعلوا وقتًا للقرآن ولتدعيم الحالة الإيمانية بالذكر والإيمان، حتى ترتقي حالنا الإيمانية، ويزدادَ تعلُّقنا بالغيب.

فالرهان اليومَ بين ثقافتنا الإسلامية والثقافة المُستورَدة (أعني الأمْرَكة والعَولَمة وما يُخطط لنا) هو على هذه النقطة: ما الذي سيكون في انقلاب الهُوية أو ثباتها؟

هل تستطيع المادية تغيير ثقافتنا من خلال ما يَرِد علينا كل يوم، أم أننا نقدر على تدعيم ثقافتنا وتصديرها إليهم من جديد؟

إنه سؤال مهم..

٢- البيئة: فينبغي أن نبحث عن بيئةٍ نَقيّة الأخلاق، لأن بقاء الإنسان وحده في فرديته يعني أن الشيطان سيأكله: إِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الغَنَمِ القَاصِيَة، فابحث عن البيئة النقيّة التي من خلالها يسرق الطبعُ الطبعَ، ولا يمكن للأخلاق أن تتحسّن في جماعة أو فرد إلا حينما توجد البيئة والصحبة الصالحة، التي من خلالها يتأثّر طبع الإنسان فتزكو أخلاقه.

٣- الأطفال: فأطفالكم هم مستقبلكم، فإن نحن أهملناهم أهملنا مستقبلنا، وأختصر موضوع توجيه الأطفال إلى نقطتين اثنتين:

١- أوجد لولدك في الأسرة في مُخيِّلته نموذجًا عظيمًا ذكِّرْه به كلَّ يوم: فذكِّره بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وذكِّره بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وذكِّره بحمزة ومُصعب، وذكِّره بعمر بن عبد العزيز، وذكِّره بالأيوبيِّ صلاح الدين...

ذكِّره بالعلماء والأصفياء، وأوجد في مُخيلته حكايةً، كحكاية الجدَّة التي كانت تُربِّي الأجيال.

وإذا كانت الجدّة قد غابت، أيغيب منهج التربية؟!

أوجد في مخيلة الطفل نموذجًا، فقد أصبح نموذجُه: (توم وجيري).

حتى وإن كُنا عاجزين على مستوى الوسائل في هذا الوقت، بسبب التخلُّف الحضاريّ، عن إنتاج الأفلام المتطورة والوسائلِ التي تجذب الأطفال، فلا بد من الجُهد البشري، الذي يمكن من خلاله أن نجذب الأطفال.

٢- ادعموا المؤسسات التربوية التي تنهض اليوم من جديد في بيئتنا:

وقد بدأت بعض المؤسسات التربوية التي تعتني بالأطفال عنايةً خُلُقية وحضارية متطورة.

أخاطب الأغنياء وأقول: إذا أردتم أن تصنعوا مُستقبلاً فينبغي عليكم أن تبذلوا الأموال لدعم المؤسسات التربوية التي تبحث عن الموهوبين وتعتني بهم لتُنتج جيلاً عبقريًّا ذكيًّا، لا يَدفَعُ المال بل يُدفَعُ له المال.

نستطيع صناعة مستقبلنا، فإما أن نُهمله كما أهملنا حاضرنا، وإما أن نبنيه ليَذْكُرَنا ربُّنا أولاً قبل أن يَذْكرنا التاريخ.

رُدَّنا اللهم إلى دينك رَدًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.

د. محمود أبو الهدى الحسيني